المجد لمن لا يتوقف

(رِحْلَةٌ فِي وَجْهِ الْعَوَاصِفِ)

د. عبدالله صالح الطحيني

المجد لمن لا يتوقف

(رِحْلَةٌ فِي وَجْهِ الْعَوَاصِفِ)

د. عبدالله صالح الطحيني

ⓒ عبدالله صالح عبدالرحمن الطحيني ، ١٤٤٦هـ

الطحيني ، عبدالله صالح
المجد لمن لايتوقف. / عبدالله صالح الطحيني - ط١. .- حائل ،
١٤٤٦هـ
١٠٠ ص ؛ A5 سم

رقم الإيداع: ١٤٤٦/١٦٤٦٣
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٥-٧٠٠٣-٤

الفهرس

الإهداء ١

المقدمة..... ٢

الفصل الأول: ميلاد الحلم في قلب الصحراء..... ٣

الفصل الثاني: المقعد الفارغ..... ٨

الفصل الثالث: الاختبار الأصعب..... ١٣

الفصل الرابع: عندما يصبح النجاح معركة ٢٠

الفصل الخامس: العودة إلى مدينة هلي..... ٢٨

الفصل السادس: المواجهة مع الموت ٣٤

الفصل السابع: النهوض من جديد..... ٣٥

الفصل الثامن: الحيرة والأقدار..... ٦٤

الفصل التاسع: الابتعاث..... ٦٩

الفصل العاشر: نحن جيل التحول ٨٩

الخاتمة..... ٩٥

الإهداء

إلى الذين كانوا مرآتي حين غابت ملامحي، وسندي حين اهتزت خطواتي...

إلى من زرعوا في داخلي الإيمان وأنا أغرق في الشك، ولم ينسحبوا حين خذلتني نفسي.

هذه الرواية هي اعترافي بجميلهم، وامتداد لتلك اللحظات الصامتة التي رمّمتني، ولتلك الأرواح النبيلة التي غيّرت مسار الحكاية دون ضجيج، بصبرها لا بكلماتها، وبحضورها لا بشروطها.

لولاهم بعد الله، لما كُتبت هذه الحروف... ولا انطلقت من بين الرماد هذه الحكاية.

المقدمة

الحياة لا تُقاس بعدد الأنفاس التي نأخذها، بل بعدد الوقفات التي قاومنا فيها الانكسار... بعدد المرات التي قيل لنا "لن تستطيع"، فاستطعنا.

الحياة ليست حكاية نرويها حين نبلغ نهايتها، بل هي نبضٌ في كل لحظة نحارب فيها كي لا نسقط.
وهذا الكتاب ليس قصة نجاح، بل قصة صمود، قصة من قاوم الانطفاء عندما خفَت الضوء، ومضى حين اختار كثيرون التوقف.
أكتبها لا لأُبرز الإنجازات، بل لأحفظ في الذاكرة الدروب التي مشيتها حين كنت وحيدًا، تلك التي امتلأت شوكًا وحجرًا ووعارةً بين الجبال امتلأت دمعًا، حزنًا، ألما، ترقُّبًا، دعاءً، صبرًا، أملًا ولُطفًا ممن قدّر كل هذا.

هذه ليست سيرة ذاتية تقليدية، بل شهادة ميلاد جديدة، كُتبت في منتصف المعركة، لا بعدها.

كتبتُ هذه الرحلة لا لأُسطّر نجاحاتي وأتباهى بها، فأنا لازلت يافعًا في بداية الطريق،
بل لأُظهر للناس كيف يولد النور من قلب العتمة، وكيف ينبت المجد حين لا نتوقف.

قصتي لم تُولد في يوم، بل صِيغت من أيام الانكسارات، وصُهرت تحت وهج الأمل.
قد تكون قصتي عادية في ظاهرها، لكنها ممتلئة بكل لحظة وجع، وكل قطرة عرق، وكل دمعة كانت تُمسح في الخفاء.

إلى كل من يقف على حافة التراجع...
إلى من ظنّ أن الوجع نهاية والظروف أقوى منه، أقول:
"المجد ليس لمن يسبق، بل لمن لا يتوقف".

الفصل الأول:

ميلاد الحلم في قلب الصحراء

تحت شمس حائل اللاهبة، وفي قلب صحراء تتنفس الأصالة وتروي التاريخ،
وُلدتُ لا لأكون عابرًا بين الرمال، بل لأصبح أحد أبنائها الذين ينحتون في صخرها أسماءهم.
تلك المدينة التي تحتضن الجبال وتداعبها الرمال، لم تكن يومًا مجرد مكان...
بل كانت وطنًا يصنع رجاله من صلابة الأرض ومن طهر السماء.

كنت الابن الحادي عشر في عائلة كبيرة في أسرة عريضة تتجاوزها الأرقام:
سبع أخوات يكبرنني، وثلاثة إخوة سبقوني في الميلاد والتجربة، وثلاث أخوات لحقنني فكان ترتيبي بين الأربعة عشر، نقطة التقاء بين من سبقني ومن جاء بعدي.

عشنا في بيتٍ متواضع لا يتباهى بجدرانه،

لكنه كان عظيمًا بروحه، حيًا بدفئه، نابضًا بأصواته.

كان بيتنا مثل مسرحٍ لا تنطفئ أنواره،

لا يعرف السكون، تتعالى فيه ضحكات الإخوة، وتتشابك فيه أصوات الجدال والمزاح والمشاغبات الطفولية.

وفي خضم هذا الزحام المزدحم بالحيوية، لم يكن البقاء سهلًا، ولم يكن التميز خيارًا... بل ضرورة.

في منزل يفيض بالحياة، لم يكن هناك متسع للهامشيين، بل فقط لمن يثبتون جدارتهم بأن يكونوا شيئًا.
وهكذا، منذ الطفولة، تعلّمت أن أكون حاضرًا، مميّزًا، لا أقبل أن تُغمر ملامحي في الزحام، بل أن يكون لي موضع وبصمة.

أبي، رحمه الله، كان مزيجًا من الصرامة والمحبة،
قوته لا تُناقش، وكلمته لا تُكسر،
رجلٌ إذا تكلم، صمت الجميع. قوته لا تُناقش، وكلمته كانت القانون.

لكنه حين يناديني بـ"الأمير"، كنت ألمح في عينيه شيئًا آخر... شيئًا يشبه الأمل.
كان يراني امتدادًا له، حلقة وصل بين ما كان وما يجب أن يكون.
لم يكن يراني مجرد طفل، بل امتدادًا حيًّا لكفاحه، وتجسيدًا لأحلامٍ نسجها على ضفاف التعب. كنت في عينيه الوعد الذي يحمل شعلة مسيرته، والنبض الذي يخلّد سعيه في وجه الحياة

أمي، الصخرة الصامتة، كانت العمود الذي لا يهتز،
حنونة بلا ضجيج، قوية بلا صخب،
تُدير بيتًا مليئًا بالأبناء كأنها تُدير جيشًا منظمًا.
كانت تُصغي لكل نغمة في قلوبنا، وكأنها تسمع نبضاتنا قبل أن نتكلم.

إخواني الثلاثة الكبار، كانوا لي نماذج للرجولة الحقة.
وجدت في أحدهم التضحية والحزم والقدرة على اتخاذ القرار،
وفي الثاني الرحمة الكبيرة ومهارة التواصل والاندماج الاجتماعي الكبير،
أما الثالث، فكان بحرًا من العطف والتضحية، يضع حاجات غيره قبل نفسه، ويتحمل المسؤولية بصدر واسع وروح نقية.
منهم تعلمت أن القوة لا تعني القسوة، وأن الثقة تُبنى بالصدق،
وأن الاحترام يُكسب بالمواقف لا بالكلمات.

أما أخواتي العشر، فكنّ لي عشر تيجان من النور،
لم أجد منهن إلا الحب الصادق، والاحترام العميق، والمودة التي لا تذبل.
تعلمت منهن الرقة في المعاملة، واللين في القول، والعطاء بلا حدود،

والصبر على الملمات، والجلادة في مواجهة الأيام. كنّ مدرسةً في خوض معارك الحياة دون استسلام، ولهذا أشعر أنني مدين لهن جميعًا، بكل ما فيّ من خير، ونجاح، وثبات.

لكن وسط كل هذه الكثافة البشرية، كان لخالد، أخي الذي يكبرني بعامين، مكانة لا تُشبه أحدًا. كان أقرب إخوتي إليّ عمرًا وقلبًا وروحًا. لم يكن مجرد أخ، بل كان رفيق الحلم ورفيق الطريق.

في سن السابعة، بدأت أول خطواتي نحو النور:
حلقات تحفيظ القرآن.
هناك، حيث يُرتل الصغار كلام الله وتُسكب الرحمة من السماء،
كنت أجلس وأنا بالكاد أفرّق بين الحروف،
أكرر الآيات تارة، وأتلعثم تارة،
وأبكي أحيانًا من التعب ولكن لا يفيد البكاء ولا التعب عند أبي،
كان لا يرضيه إلا الجدية والاستمرارية،
وننسى كل هذا التعب عندما يكافئنا أنا وأخي خالد والذي كان بجانبي،
يسير بخطواته الثابتة وكان مصدر قوة في تلك المرحلة.

لم يكن الأمر سهلاً، لا السنّ الصغيرة ولا ثقل الحفظ،
لكني تعلّمت شيئًا غيّرني للأبد:
أن كل حرف يحتاج صبرًا، وكل حلم يحتاج جلدًا.
مرت السنوات، وتراكمت الصفحات في صدري،
حتى وقفت ذات مساء أمام والدي، نظرت إلى عينيه التي طالما قرأتُ فيها الترقب،
وقلت له بفخر لا يشبه غيره:
"أتممتُ حفظ القرآن، يا أبي."

رأيت في وجهه نورًا جديدًا، كأن الجبال التي حملها على كتفيه طيلة حياته قد زالت.
لم يكن الإنجاز لي وحدي، بل له، لحلمه الذي طال انتظاره، لصبره، لدمعه، لثقته، للعائلة أجمع.

ذلك اليوم لم يكن مجرّد ختام لحلقات التحفيظ، بل كان انعطافة خفية صنعتني من جديد.

كنت أجلس في طرف المسجد، بين الصبية، والنسيم يتسلّل من النوافذ العالية، يحمل رائحة السجاد العتيق وصوت شيخٍ تكسوه الهيبة.

وحين خُتم القرآن، لم يكن التصفيق ولا التهاني ما هزّني، بل شعور عميق بأنني بدأت لتوّي أوّل خطوة في طريق طويل.

أدركت يومها، رغم صِغري، أنني لست جزءًا عابرًا من هذا المكان،

وأن الرمال التي مشيت عليها حافيًا ذات مساء،

والجبال التي رفعت رأسي نحوها ذات دهشة،

لم تكن مجرد مشاهد في الطريق، بل كانت شهودًا على عهدٍ داخلي:

أن أكون شخصًا يترك أثره لا بعلوّ صوته، بل بصدق خطاه.

لم أكن أطمح للعظمة، بل للتميّز الصامت الذي لا يطلب التصفيق،

كنت أؤمن أن من يعمل بصبر ويصعد بتواضع،

سيبلغ القمة، حتى لو استغرقه العمر بأكمله

الفصل الثاني:

المقعد الفارغ

في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية،
كنتُ أترقّب بقلق لحظة الغربة عن مدينتي **حائل**.
لم تكن هناك كلية طب آنذاك، وكنت أتهيأ للانتقال إلى مدينة أخرى لمتابعة دراستي.
لكن الأقدار خبّأت لي مفاجأة غير متوقعة:
افتتاح كلية الطب في جامعة حائل.

التحقتُ بالدفعة الأولى، وكنّا مجموعة متميزة بتنوعها وتكافلها.
بعضنا جاء من المرحلة الثانوية مباشرة، والبعض من كليات أخرى،
لكننا سرعان ما كوّنا **مجتمعًا أُسريًّا مترابطًا**.
سادت بيننا روح المحبة، والمنافسة الشريفة، والدعم المتبادل.
كنا نكمل بعضنا، نرتقي معًا، ونواجه التحديات ككتلة واحدة.

لكن كوننا أول دفعة لم يكن سهلًا.
كنا **حقل تجارب** في المناهج، الجداول، وحتى المواقع.
تنقلنا بين المباني، وعدم وجود مستشفى جامعي جعلنا نتدرب في مستشفيات المنطقة كضيوف لم يعتادوا أطباءها على وجودنا من قبل.
كانت **سنوات الكلية مليئة بالتحديات والصبر الجماعي**، لكنها صنعت منّا أطباءً صقلتهم التجربة.

ومع ذلك، لم تكن أصعب معاركي مع المقررات أو المقرات، بل كانت مع شيء بسيط جدًا... **الكلمات**.
اللغة الإنجليزية لم تكن مجرد مادة،
بل كانت سيفًا مسلطًا على رأسي، وحاجزًا يختبر هويتي.
كنتُ أقرأ سطور الكتب الطبية وأشعر وكأنها طلاسم،
أستمع إلى المحاضرات فأحس كأنني أعيش في عالم لا أنتمي إليه.
زملائي يناقشون ويسألون ويجيبون،
أما أنا فكنتُ أبحث عن الكلمات في ذهني كما يبحث الغريق عن طوق نجاة.

كنتُ معتادًا أن أكون الأول، أن يُشارَ إليّ بالبنان،
لكن فجأة...
أصبحت مترددًا، مرتبكًا، أتجنب المشاركة خشية الخطأ،
وكأن ذلك الفتى المليء بالثقة في حلقات التحفيظ، قد اختفى وسط مقاعد الطب الجامدة.

لكنني لم أكن من النوع الذي يستسلم.
قررتُ أن أبدأ من جديد، أن أعيد بناء لغتي حرفًا حرفًا.
كتبتُ الكلمات مئات المرات،
رددتُ العبارات بصوتٍ مرتجف ثم واثق، وسهرتُ الليالي أمام القواميس والمراجع.
كنتُ لا أتنازل عن أي فرصة للفهم أو التعلم،
حتى صارت اللغة التي كانت تُرهقني، **جسرًا عبرتُ عليه إلى الثقة من جديد**.

في السنة الخامسة،
وبينما كنت قد بدأت أستعيد ثقتي،
قدتُ السيارة بأبي إلى القصيم لحضور حفل تخرج أخي **خالد** من كلية الطب.
كان ذلك من أعظم أيام والدي،
لم تفارقه الابتسامة، وكانت نظراته تمتلئ بالفخر والرضا.
وفي طريق العودة،
تخيّلت لحظة حضوره **حفل تخرجي أنا**،
وتصورت مشاعره حينها...
كان خيالًا جميلًا وكان حينها بنظري واقعًا تفصلني عنه الأيام فقط.

نعم مرت الأيام والأشهر، ولكن يبدو أن خيالاتي أبعد ما يكون عن الواقع،
حيث جاءني ما لم أكن مستعدًا له...

مات أبي.

كان ذلك الخبر كالسهم المباغت في ظهري،
خفَتَ العالم من حولي، وتحولت ملامحه إلى صمتٍ بارد.
كيف مات من كنتُ أراه جبلًا لا يهتز؟
كيف انتهت تلك اليد التي طالما وُضعت على كتفي وقالت لي:
"ستكون الأفضل يا الأمير"؟

تكسّر الحلم، وانهار الركن الآمن من روحي.
مرت الأيام مثقلةً بطيئة الخطى،
حتى جاء يوم تخرّجي، ذلك اليوم الذي انتظرته طويلًا... لكنه جاء منقوصًا.

حضر **إخواني وأعمامي وخوالي،**
شاركوني الفرح، واحتضنوني بمحبّتهم، فأسعدوني كثيرًا.
لكن رغم وجودهم،
ظلّ **المقعد الفارغ يصرخ في داخلي**.
كانت تلك **محاولات جميلة... لكنها عاجزة عن سدّ مكان لايُسد**.

كنتُ **الابن الوحيد** في البيت،
وكنت أعلم أن غيابي سيكون ثقيلًا على أمي وأخواتي.
ترددت، وانهالت عليّ الأسئلة:
هل أواصل؟ هل أعتذر؟ هل أؤجل سنة الامتياز؟
في تلك اللحظة، نظرت إليّ أمي، **بثبات امرأة عظيمة،** بعد إلحاح طويل وقالت:
"ياوليدي ماهنا إلا الخير، لاتجلس إلحق مستقبلك."

كانت كلماتها **بوصلةً وجهتني في عاصفتي،**
فانطلقت إلى التدريب الطبي، لكنني رتبت كل شيء لأبقى قريبًا منها.
قضيتُ **سنة الامتياز أغلبها في مستشفيات حائل،**
باستثناء **ثلاثة أشهر فقط** في الرياض،
خصصتها لتدريب الطب النفسي حيث الطموح والهدف.

والذي كان اختياري يأتي لعدة أسباب أهمها أن علاج الحالة النفسية لايختص فقط في تصحيح خلل جسماني بل يمتد أثره على حياة الشخص وأسرته وبيته وعلاقاته، أثره على المجتمع بأكمله، على الأمن والتعليم والإنتاجية وأمور كثيرة. كم هو إحساس عظيم أن تكون جزءًا من هذه المنظومة الفذّه التي يطغى عليها بشكل كبير جانب الإنسانية والمواجدة والتراحم.

الفصل الثالث:

الاختبار الأصعب

بدأت رحلتي في برنامج البورد السعودي من مدينة الدمام،
مدينةٌ لا تشبه مسقط رأسي في شيء،
كل شيء فيها جديد عليّ: **الوجوه، الشوارع، حتى الهواء...**

قضيتُ الأشهر الستة الأولى هناك، أحاول أن أتماسك في بيئة غريبة التفاصيل.
اللهجات متفاوتة، الخلفيات الثقافية متنوعة،
والبعد عن الأهل كان كأنّه سكين يغرس في القلب بهدوء كل مساء.

ولم تكن غربتي مقتصرة على البشر والمكان فقط،
بل بدأت مبكرًا منذ أن صعدت أول طائرة متجهة إلى الدمام.
كانت رحلة الطيران تلك... نقطة تحول لم أتوقعها.
واجهنا مطبّات هوائية عنيفة، أشدّ مما تخيلت،
كأنّ الطائرة تتهاوى في الهواء، وكل شيء فيها يرتجف حتى قلبي.
كنتُ من قبل من عشّاق الطيران، أنتظر الرحلات بشغف،
لكن بعد تلك اللحظات العصيبة، **أصبحت أرتجف كلما سمعت كلمة "طائرة"**.
لم أركب طائرة بعدها لشهور طويلة.

أصبح الطريق بيني وبين أهلي في حائل رحلة برية مرهقة لا تقل عن ٨ إلى ١٠ ساعات...
رحلة من الشوق، والحنين، والتعب الجسدي والنفسي.

سكنت في منطقة قريبة من سيهات والعوامية،
وكانت الأجواء آنذاك مشحونة بأحداث أمنية قاسية،
تفجيرات المساجد، وروايات إرهابيي المزارع،
لتكتمل عناصر التوتر الداخلي، ويزداد الشعور بالعزلة والانفصال.

كانت الحياة اليومية خالية من الألفة، كل شيء يبدو بارداً، حتى الوجوه.
كل شيء بلا ملامح، بلا دفء.
كنتُ أتنقّل بين المناوبات،
وأنام في سكنٍ لا يحمل لي أي إحساس بالانتماء.
أقاوم الشعور بالوحشة وأحاول أن أكون ‘‘الطبيب’’
رغم أنني من الداخل منهك... ممزق... طبيب يداوي الناس... وهو مريض،
كما يُقال: ‘‘باب النجار مخلوع’’.

تعلّمت في تلك المدينة الصمت أكثر من أي وقتٍ مضى،
حتى أصبح فنًّا من الفنون التي أتقنتها.
فن الانزواء في الزحام، فن التكيّف القاسي.

بعدما انتهت الأشهر الستة،
انتقلت إلى الرياض...
وأحسست وكأنني أتنفّس للمرة الأولى.

في الرياض، بدأت مرحلة جديدة من التدريب،
أكثر استقرارًا، وأقرب إلى نبضي ونفسي.

قضيت النصف الأول من العام في محطاتٍ متعددة،
أحاول لملمة شتات نفسي،
حتى وصلت إلى مستشفى الملك خالد الجامعي،
وهناك... بدأت أولى فصول التحدي الحقيقي في هذا التخصص.

في ذلك المكان، لم يكن هناك وقت للحزن، ولا فسحة للتردد.
كل شيء يسير بسرعة، ضغط العمل يكاد يُطبق على أنفاسي.
المسؤوليات تتراكم،
والمناوبات لا ترحم،
والتقييمات دقيقة كأنها مشرط جراح.
الأساتذة صارمون،
لا يقبلون بالتساهل،
والزملاء يركضون وكأن الزمن يطاردهم.

كنت أواجه بعض التحديات هناك،
يبدو أن النهج إشعارك بالتقصير في البداية لكي تبذل قصارى جهدك فيما تبقى،
كنت أعود إلى السكن منهكًا، أُعيد شريط اليوم مرارًا، أتساءل: هل كنت بالمستوى المطلوب؟ هل خذلت أحدًا؟ هل خذلت نفسي؟

لكنني قاومت تلك الأسئلة، لم أسمح لها أن تفتك بي،
كنت أحارب الشك بالاجتهاد، والخوف بالدعاء، والتعب بالإصرار.

وفي نهاية تلك المرحلة... **وصلتني شهادة شكر وتقدير من أساتذتي،**
كانت بالنسبة لي أكثر من ورقة.
حينما جمع أستاذي البروف فهد العصيمي الأطباء المقيمين والمتدربين وقال:
"لو كان مريض عندي مستقبلا من حائل أقوله لاتتابع معي، كمّل بحائل، موجود د.عبدالله"، كانت بمثابة همسة خفية تقول: **"لست تائهًا... بل طبيب يُعتمد عليه."**
وكعادة البشر، ما إن سمعت تلك الكلمات حتى تلاشت كل لحظات التعب والإحباط،
كأن الحروف تحوّلت إلى يدٍ خفيّة تربت على قلبي وتواسيه بصمت.

لكنّ الحياة لم تنتهِ من امتحاناتها بعد،
بل كانت تُعد لي اختبارًا أقسى،
اختبارًا ينتظرني في نهاية السنة الثانية من البورد.
كان الامتحان السريري المصيري...
الخط الفاصل بين المرحلة المبتدئة (جونيور)، وبداية المرحلة المتقدمة (سينيور).
اجتزته بنجاح، وشعرت وكأنني تنفست للمرة الأولى منذ زمن.
ظننت أني عبرت آخر العقبات، وأن القادم سيكون أسهل.

وفي أول يوم من السنة الثالثة،
وصلتني تهنئة باختياري رئيسًا للأطباء المقيمين في الطب النفسي في مدينة الأمير سلطان الطبية العسكرية.
كنت فخورًا، شعرت أن تعبي لم يذهب سُدًى.

لكن الفرحة لم تدم أكثر من نصف ساعة،
إذ وصلني بعدها خبر كأنّه اجتثّ جذور سعادتي.
قيل لي:
"أنت ضمن قائمة من سيُحالون إلى برنامج إعادة التصحيح السريري لمدة ستة أشهر."
برنامج جديد، لمن اجتازوا الامتحان...
لكن بدرجات دون سقف التوقعات.
رغم تكليفي برئاسة الأطباء،
كنت واحدًا من ثلاثة أو أربعة فقط شملهم القرار.

شعرت بالذهول...
بالخذلان...
بالحيرة.

كيف أكون ناجحًا، ثم يُقال إنني بحاجة لإعادة تصحيح؟
كيف أكون قائدًا... وأنا يُعاد تقييم مهاراتي السريرية؟
كيف يروني من كنت سأقودهم؟

زملائي حاولوا مواساتي،
قالوا لي كلمات بلسَمَت شيئًا من ألمي:
"أنت أفضلنا في مهارات المقابلة... هذا مجرد إجراء... أنت قدّها."
كنت أردد كلماتهم، لكن في داخلي...
كان الشك يتسلّل إلى مفاصل الروح،
يسري في العروق كالماء البارد، يوقظ الخوف كلما حاول السُّباتْ.

سألت نفسي مرارًا:
هل قصّرت؟
هل غفلت عن شيء؟
هل كنت أستحق هذا القرار؟

لكني ما كنت ممن يتوقفون عند أول عثرة.
لبستُ خوذة الصبر،
وحملتُ سلاح الدعاء،
وخضتُ أصعب ستة أشهر مرّت عليّ.
شهور من الضغط، والقلق، والتساؤل... ولحظات من الانكسار.

لكنني كنت أذكّر نفسي كل يوم: **"هو حسبي ورجائي، وبه قوتي، وعليه اتكالي."**

وفي النهاية،

اجتزت ثلاث حالات سريرية بتقييم مرتفع.

أثبتُّ أنني لم أكن مجرد مؤهل للانتقال...

بل كنتُ أهلًا للثقة من البداية.

عدت إلى طريقي،

لا أستند إلى منصب،

ولا إلى شهادة،

بل إلى تجربةٍ صقلتني،

وخرجت منها أصلب مما كنت.

الفصل الرابع:

عندما يصبح النجاح معركة

نجحتُ في اجتياز برنامج إعادة التصحيح،
لكن الطريق إلى برّ الأمان لم يكن قد اكتمل بعد.

كان العام الأخير من البورد أشبه بجدار شاهق يفصل بيني وبين الحلم،
جدار لا يُفتح إلا لمن امتلك الإصرار، لا القوة وحدها.
لم يكن هذا العام أقلّ ضغوطًا مما سبقه،
بل ازدادت فيه التحديات صعوبة وتعقيدًا.

نظام جديد طُبّق فجأة:
لا بد أن ينجح الطبيب في حالتين سريريتين طويلتين من أصل ثلاث،
وإلا... يُعاد العام بالكامل.

لم تكن مزحة،
بل تهديدًا صريحًا بإعادة سنة كاملة لمن يتعثّر،
أيًا كان اسمه أو جهده.

كنتُ أراجع نفسي كل يوم،
أعيش ضغطًا داخليًا مرعبًا:
"ماذا سأقول لأهلي؟
لزملائي الذين يعلمون أنها سنتي الأخيرة؟
كيف أواجههم إن عدت سنة للوراء؟"

كانت كل هذه الأسئلة تُصارعني يومًا بعد يوم،
وكنت أقاومها بالمراجعة والاستعداد،
وبالمساومة اليومية بين الخوف والعزم.

كانت المساومة النفسية قاسية... لكني مضيت.
كان الأمر كفيلًا بأن يزلزل أي يقين.
الفشل لم يكن يعني تأخرًا عابرًا،
بل ضياع سنة كاملة من الجهد،
وتعريض الحلم كله للانهيار.

لكنني كنت أعرف في قرارة نفسي: أنني لم أصل إلى هذه المرحلة لأتراجع.
لم أقطع هذا الطريق لأتوقف على أعتابه.

استعددتُ بكل ما أملك،
راجعت نفسي مرارًا،
لم أترك تفصيلًا دون أن أدرسه،
ولا احتمالًا دون أن أُجهز له.

وحين جاءت لحظة الحسم،
ودخلت قاعة الامتحان،
لم يكن في ذهني سوى جملة واحدة تكررت كنبضٍ في داخلي:
"إما أن أنجح... أو أن أنجح."
وبفضل الله،
نجحتُ في أول حالتين،
بينما تعثّر عدد كبير من زملائي،
الأمر الذي دفع إدارة البرنامج إلى إضافة محاولة رابعة استثنائية نظرًا لكثرة من لم يجتازوا.

عندها فقط أيقنت أنني لم أكن محظوظًا...
بل كنتُ مستعدًا حقًا،
وأنّ ما بنيته طوال العام لم يذهب سدى.

تلا ذلك الامتحان النهائي بشقّيه:
الكتابي والسريري،
امتحان اتفق الجميع على صعوبته غير المسبوقة،
كأن الله يهيئني بجميع تلك المصاعب للفرج الكبير الذي طال انتظاره.

نجحت في الاختبار الكتابي،
والآن بقيت نتيجة الامتحان السريري،
ذاك الباب الأخير،
الذي يُفتح إمّا على مجدٍ يُتوّج رحلة الكفاح،
أو على هاويةٍ تبتلع الحلم في لحظة.

طال الانتظار...
امتدّ كظلّ ثقيل فوق أيامي ولياليّ،
يمتدّ مع كل دقيقة صمت،
وكل لحظة تفكير،
وكل احتمالٍ أسود رسمته مخيّلتي المرتجفة.

وفي ظهيرة يومٍ ساكن،
كنت في استراحة أصدقائي، نصف نائم، نصف هائم،
حين رنّ الهاتف برسالة قدَر:
"النتائج ظهرت."

كان المتصل زميلًا لم يُوفّق في الامتحان ذاته،
لكنّه رغم خيبته، سبقني بالمحبة،
وبلغني النبأ كما يبلّغ الصديق الوفيّ من يحبّ.

نهضت،
كأنّما رُفع عنّي غطاء الوعي دفعة واحدة،
فتحت الموقع...
وإذا بالخوف يطبق على أصابعي،
أُدخل الرقم... ثم توقّفت.
هل أضغط؟
هل أواجه مصيري الآن؟
وضعت يدي فوق الشاشة،
كأنّ بيني وبين الحقيقة حاجزًا من رحمة.

فماذا لو...
ماذا لو لم تكن الكلمة التي حلمت بها هناك؟
كيف لي أن أحتمل لحظة السقوط؟
كيف أُعيد لأمي نظرتها المليئة بالرجاء؟
كيف أُخبر قلبي أن الحلم تأجّل؟

مرّت دقيقة كأنها دهر.
ثم رفعت يدي...
لكن عينيّ أبتا النظر،
كأنّ كل جارحة تخشى أن تكون أول من يتلقى الصدمة.
ثم...
وببطءٍ مهيب،
تسلّلت عيناي إلى الشاشة.

"PASS"

كلمة من أربعة أحرف فقط،
لكنها حملت من المجد ما لا تحمله دواوين الشعر،
ومن النور ما يمحو ظلام سنوات.

قفزتُ من مكاني لا أدري كيف،
هل غسلت وجهي؟
هل لبست ثوبي؟
هل ارتديت حذائي؟
لا أعلم.
كل ما أدركته أني خرجت مسرعًا،
ودموعي تنهمر كأنها مطر طال احتباسه،
تغسل وجهي، وتغسل تعب الأيام.

قادني قلبي قبل قدميّ إلى بيتنا حيث أمي،
إلى حضنها الذي كان ينتظر هذا النبأ كما تنتظر الأرض غيثًا،
طرقت الباب بدموعي قبل أن أطرقه بيدي،
وحين أخبرتها...
انهارت دموعها هي الأخرى،
وعانقتني كما يعانق النصر صاحبه.

كل من في البيت بكى...
بكاء الفرح،
بكاء الفخر،
بكاء "لقد نجوت".

بشّرت الجميع،
حتى الجمادات شعرت بها تبتسم لي،
كأنّ الجدران تحفظ قصتي،
وتردد في صمتها:
"لقد فعلتها."

وفي نهاية المشوار...
حصلتُ على شهادة البورد السعودي.

كانت تلك اللحظة لا تُشبه شيئًا،
دموعٌ لم تذرفها عيني من قبل،
لكنها انهمرت هذه المرة بلذّة الانتصار،
بعد أعوامٍ من الصبر،
والكدّ،
والانكسار،
والنهوض.

كان الطريق طويلًا...
مليئًا بالعثرات،
لكنه كان طريقًا مستحقًا.

عدتُ من هذه الرحلة مختلفًا،
أقوى مما كنتُ،
أكثر فهمًا لذاتي،
وأشدّ ثقةً برحمة الله.

دعوات أمي كانت النور الخفي الذي أنار كل العتمات،
ودعمها، ومعها أسرتي بأكملها،
كان الحصن الذي لم يتزحزح.

أخي خالد كان درعي الذي احتميتُ به،
وسندي الثابت في كل منعطف.

وصديقي عبدالمحسن...
كان صوت الإيمان لحظات الشك،
والقوة التي تدفعني للأمام حين تتراجع خطواتي.

لم يكونوا مجرد أشخاص في حياتي،
بل كانوا أركانًا من صلابتي،
وأعمدةً في معركتي نحو القمة.

الفصل الخامس:

العودة إلى مدينة هلي

بعد تخرجي، عدتُ إلى حائل،

المدينة التي أحببتها، المدينة التي ظننتُ أنها ستحتضنني كابنها الذي عاد منتصرًا.

لكنني لم أجد الاحتضان الذي توقعتُه،

ولم أجد الفرصة التي كنتُ أستحقها.

كنتُ **الطبيب النفسي السعودي الأول والوحيد من أهل المنطقة عبر تاريخها،**

ومع ذلك، لم أُمنح أي امتياز خاص،

لا لكوني أول طبيب من أبناء المنطقة،

ولا كمستشار يُساهم في صنع القرار الإداري والتحسيني.

لم أطلب أي منصب إداري لمدة عام كامل،

إذ كنتُ أؤمن حينها أن الفرص الحقيقية تأتي لمن يستحقها،

لا لمن يسعى خلفها.

ورغم كفاءتي وجهودي،

وجدتُ نفسي غريبًا في مدينتي.

وربما كان ذلك لأسباب عدة،

منها قناعتي حينها بأن عزة النفس أهم من أي منصب،

ومنها أنني **لم أكن ذكيًا اجتماعيًا وعاطفيًا بما يكفي**.

لم أُحط نفسي بالأشخاص الإيجابيين،

بل انغمستُ دون قصد في بيئة يغلب عليها السلبية والمناكفات البسيطة مع الإدارة ومحيطها.

وفي سبتمبر ٢٠٢٠، تزوّجت.

كنتُ أسمع كثيرًا عن بركة الزواج، عن كونه نقطة تحول خفية لا يدركها المرء إلا حين يعيشها.

لم يكن الأمر مجرد محطة جديدة، بل كان أشبه بمفتاح سحري فتح أمامي أبوابًا لم أكن أظنها ستُفتح يومًا.

وكأن العوائق التي وقفت في طريقي كانت تنتظر هذا الحدث لتتبدد،

وكأن مسارات الحياة التي بدت ضيقة قد اتسعت فجأة دون سابق إنذار.

كان ميلادًا جديدًا لي، لحلمي،

ولطريقي الذي كان يضيق بي فإذا به يتسع،

حتى ظننتُ أن السماء قد اقتربت أكثر من أي وقت مضى.

ثم جاءت اللحظة التي شكّلتني أبًا لأول مرة،

في ٢٣ فبراير ٢٠٢٢، حين رُزقتُ بصالح،

الذي أسميته على اسم أبي رحمه الله.

كان ذلك في منتصف رحلة الإنجازات،

وكأن القدر أراد أن يُبارك هذه المرحلة بشيء من الروح، من الامتداد، من الحياة.

كان **لصالح** وقعٌ خاص في قلبي، لا يشبهه شيء.

مشاعر الأبوّة باغتتني بعطفٍ جديد، لم أعهده من قبل.

أصبحتُ **أكثر لينًا، أكثر مرونة، أقل قسوة**.

أدركت أن القيادة لا تحتاج إلى صرامة دائمًا،

بل إلى قلب يسمع كما يعقل.

كانت أمي تغمرها السعادة بهذا الاسم،

وكأن **روح أبي** قد عادت ترفرف في البيت من جديد،

وفرح كل من أحب أبي به، وكأن صالح جاء ليُعيد للذاكرة بريق الماضي بنسخةٍ مصغّرة.

أما هو، فكان محبوبًا ببراءته، مشاغبته، وحيويته التي تدخل القلوب دون استئذان.

بدأت أرى الأمور من زاوية مختلفة، وبدأت الفرص تتوالى،

وكأن شيئًا كان راكدًا قد تحرّك أخيرًا، دافعًا بي نحو أفق لم أكن أظنها قريبة.

كنت أردد حينها:

"لم أُخلق لأكون عابرًا في الحياة."

لهذا بدأتُ بإثبات نفسي في المستشفيات العامة المختلفة،

كطبيب نفسي يخدم المرضى دون أي اعتبار للمناصب أو الاعتراف الإداري.

ومع مرور الوقت،

بدأ اسمي يبرز،

حتى جاء اليوم الذي استدعتني فيه الإدارة

ذاتها التي كنتُ أظن أنها لا تراني،

وتم تعييني **رئيسًا لقسم الطب النفسي،**

ثم مديرًا طبيًا لمجمع إرادة للصحة النفسية.

ما بدأ كعلاقة متوترة بيني وبين الإدارة، تحوّل إلى علاقة احترام وتقدير متبادل، بل وإلى:

"شراكة إدارية ناجحة"

أدركتُ حينها أن سوء الفهم، والافتراضات الخاطئة قد تصنع حواجز وهمية بين الأشخاص.

وعندما تم التعرف على الأسباب ومعالجتها،

وجدتُ نفسي أمام أحد **أعظم القادة** الذين مروا علي في حياتي،

قائدٌ علمني الكثير عن الإدارة، القيادة، والتوازن بين المبادئ والمرونة.

في النهاية،

لم تكن المسألة تتعلق بالمنصب، بل بالنضج، بالفهم العميق لطبيعة العلاقات المهنية، وبإعادة تصحيح المسار.

كانت تجربة قاسية لكنها علّمتني أن الذكاء العاطفي والاجتماعي لا يقل أهمية عن الكفاءة المهنية،

وأن الفرص لا تضيع، لكنها تأتي في وقتها المناسب لمن يستحقها.

الفصل السادس:

المواجهة مع الموت

في ديسمبر من عام ٢٠٢١م،

كنت في ربيع عمري،

شابًا لا تزال الشمس تشرق من جبينه،

بدأت ثمار جهدي تتدلى من أغصان الصبر:

استشاري في الطب النفسي ومدير طبي لمجمع إرادة،

زوج حديث عهد بحياة جديدة،

وأبٌ قيد الانتظار لطفلٍ صغيرٍ اسمه "صالح" منتظرة ولادته بعد شهرين تقريبا.

كانت الأيام تمضي كأنها قصيدة ناعمة،

هادئة، مسترسلة، تحملني على ضفاف الحلم،

الحياة تنظر إليّ برضا، وأنا أنظر إليها بأملٍ ممتدٍ نحو الأفق.

ثم جاءت اللحظة التي غيّرت كل شيء.

نغزات في الصدر...

عابرة، تافهة، لا تستحق التفكير.

هكذا أقنعت نفسي.

لكنني، على غير عادتي، قررت أن أطمئن.

أجريت تخطيطًا للقلب...

ببساطة، كأنما أُجريه لطمأنة مريض، لا لي.

غير أن الجهاز كان يهمس بشيءٍ لم أفهمه،

والطبيب قرأ تلك الهمسات... ثم رفع عينيه، وقال لي بهدوء:

"هناك ما يستحق المتابعة، اذهب إلى المستشفى."

ذهبتُ، وأنا ما زلت أقاوم الفكرة.

جلست أمام طبيب الطوارئ كأنني غريب عن جسدي.

سألني عن التاريخ المرضي، فأخبرته عن فتحة صغيرة بين البطينين أُغلقت تلقائيًا في الطفولة،

معلومة منسية، مدوّنة في ملفات قديمة بمستوصف الحي.

لكن الطبيب هزّ رأسه ببطء، وقال:

"ما نراه لا علاقة له بما مضى... بل بما هو آت."

ثم صمت، كمن يستجمع كلماته ليخبرك بما لا يُحتمل.

قال: **"الصمام الأورطي لديك ثنائي الشرفات... بدلًا من أن يكون ثلاثيًا."**

لم أفهم تمامًا،

لكنني شعرت أن شيئًا خفيًا انكسر داخلي.

قال لي:

"هذا عيب خلقي... يعيش به الإنسان سنوات دون أن يشعر،

لكن مع مرور الوقت، يبدأ بالتضيق،

وقد بدأ ذلك يظهر لديك، ومعه توسع في جذر الشريان الأورطي الصاعد."

كأن شيئًا ما انسحب من الأرض من تحتي.

خرجت من الطوارئ لا أفقه الطريق...

أسير بين الناس وكأني لستُ منهم،

أُحدّق في الوجوه كأنها ستغيب،

وأُفتّش في الأضواء عن مخرج،

لكن العتمة كانت قد بدأت تتكاثف في صدري.

جاء موعد الأشعة،

وجلست أمام الطبيب أنتظر نفيًا لا يأتي...

بل جاءني يقينٌ يُغلق كل أبواب الإنكار:

"نعم... التشخيص صحيح،

تضيق في الصمام، وتوسّع في الشريان... والمتابعة السنوية أصبحت واجبة."

في تلك الأيام، تغيّر كل شيء.

غابت الألوان، تلاشت التفاصيل،

وأصبحت الحياة رمادية تُحاكي برودة المستشفيات.

كل شارع مررت به،

كل زاوية عرفتها في مدينتي،

كل وجه أحببته...

مررتُ به كأنني أودّعه،

كأنني أقول له: "ربما لا أراك مجددًا."

لم أعد كما كنت.

حتى أحلامي صارت محدودة على صحتي فقط...

طموحاتي، التي كانت تمتد إلى السماء،

ضاقت حتى أصبحت لا تتجاوز حدود قلقي.

وصرت أرى من حولي...

يركضون خلف أوجاعهم الكبيرة بنظرهم الصغيرة بنظري اجتماعية، أسرية، مالية، وظيفية.

فأبتسم بمرارة، وأحدث نفسي:

" الصحة هي النعمة الصامتة، إذا انتُزعت تُنتزع معها كل الأحلام وكل الهموم الأخرى وتخلق ضجيجا لا يهدأ كسدادٍ لفواتير الصمت الذي لم يقدّر"

ثم بدأتُ صراع الخيارات، قرأت كثيرًا عن الصمامات الحيوانية والمعدنية،

عن أعمارها، مزاياها، مصائدها.

الحيواني يعيش أقل، لكنه لا يُقيد صاحبه.

أما المعدني، فصمته طويل، لكن صوته لا يخفت،

يطالبك بتناول المميع، بزيارة المختبر أسبوعيًا، بتجنّب النزيف، بالحذر من السقوط،

يُذكّرك دومًا أنك تعيش تحت سلطته.

وأصبحتُ ضيفًا يوميًا في حسابات أطباء القلب،

أُتابع أبحاثهم، أقرأ تجارب مرضاهم،

أجمع قصصًا... عني.

وكان بجانبي...

الصديق الذي لم يكلّ،

الدكتور **محمد الحربي**،

الذي صبّرتني كلماته كما لم يفعل دواء،

أزعجته بمكالماتي،

ورميت عليه كل لحظات رعبي،

وكان يردّ في كل مرة كما لو كانت الأولى:

بهدوء العالمين، وبثقة المُحب.

ثم قررت أن أذهب إلى طبيب مختص كما نصحني د.محمد،

ذهبت إلى الدكتور **أسامة المقبل** استشاري طب القلب في زيارة لمنطقة القصيم،

فأكّد لي كل شيء،

وقال لي: "**كل ما قاله لك محمد... هو الصواب**."

ثم تحولت إلى **مستشفى الملك خالد الجامعي بالرياض**.

وهناك...

بدأ الجسد يتكلم.

لم أعد أستطيع حمل طفلي لدقائق بسيطة،

كل مجهودٍ بسيطٍ أصبح نُذُر تعبٍ عظيم،

كأن قلبي يقول لي:

"لقد سئمت... ولم أعد أحتمل."

ثم جاءت اللحظة الفاصلة.

اجتمع طبيب القلب مع الجراح...

البروفيسور **راكان الناظر**.

كان رجلًا لا يُشبه أحدًا...

لم يكن طبيبًا فحسب،

كان كأنه يُمسك نبضك بيد، وطمأنينتك باليد الأخرى.

قال لي بثبات:

"يا دكتور عبدالله، الأعراض التي تظهر عليك تتجاوز الورق...

قد نبدو نظريًا في مرحلة متوسطة،

لكن الواقع يُملي علينا شيئًا آخر...

آن الأوان للتدخل الجراحي، الآن وليس غدًا."

وكأني مع البروف راكان في أحد **سباقاته الثلاثية** ولكن هذه المرة على **مضمار النجاة والحياة**.

كلماته كانت كأنها جرس النهاية...

لكنها أيضًا كانت بداية للنجاة.

مشاعري آنذاك،

بين رعبٍ لا يُحتمل،

وأملٍ يتشبث بأهداب الحياة.

لكني لم أكن أعرف...

أن ما خفي كان أعظم

في نوفمبر ٢٠٢٣،

وجدتُ نفسي وجهًا لوجه أمام الموت.

كان لا بد من إجراء جراحة قلب مفتوح.

لم يكن هناك وقت للتردد، كنتُ على حافة المجهول،

بين الحياة والموت،

بين الخوف والأمل،

بين الظلام والنور.

قبل العملية بأسبوع،

تم تنويمي في المستشفى،

وكانت زوجتي وصالح يلازمانني.

كنا نتبادل الطمأنينة،

نتقن إخفاء ما في أعماقنا،

ليس هروبًا من الحقيقة،

بل حرصًا على أن نحمي بعضنا.

كنا نعيش مشاهد مسرحية نؤديها بإحكام،

حتى لا يُرهقنا الخوف،

ولا ينكسر فينا الأمل.

كل ضحكة نُطلقها،

نعلم أنها تخفي وراءها دمعة،

لكننا لا نسأل، ولا نُواجه،

فالصمت أحيانًا وسيلة للعناية بقلوبنا.

دخلتُ غرفة العمليات،

وأنا أحمل في قلبي كل من أحب،

كنتُ أودّعهم بصمت،

وأبتسم في وجوههم كي لا ينهزموا بقلقي.

استيقظتُ بعدها في العناية المركزة،

غارقًا بين الأجهزة،

مشوشًا، هشًا،

لا أميّز بين ما هو حقيقي وما هو وهم.

كان وجه **والدتي** ذلك الوجه الذي كان دومًا يبعث الحياة،

قد غطّته الدموع،

وانحنت ملامحه بثقل الألم.

رأيتها ضعيفة لأول مرة،

كأن السنين جثمت على كتفيها فجأة،

لكنها كانت تحاول أن تبقى واقفة لأجلي.

إخواني وأخواتي كانوا حولي،

جاؤوا من حائل بأقدام يثقلها القلق،

لا يعرفون ما سيحدث،

ولا كيف سيجدونني،

ورأوني كما لم يرَني أحد من قبل...

منهكًا، غائبًا، محاصرًا بين الحياة واللاوعي.

تلك النظرات كانت كأنها نداءات روح،

تخترقني بالحب والخوف والرجاء،

وتقول لي بصمت: "عد إلينا".

ثم نظرتُ إليها...

زوجتي.

كانت ليست زوجة فحسب،

بل سندٌ لم يتزحزح

وقلبٌ لم يخذل.

كانت تحمل معي كل أثقال الحياة

بصمتٍ لا يُكسر

وبصبر لا ينتهي.

كيف كانت تخفي خوفها،

كيف كانت تحاول أن تبقى صلبة أمامي،

رغم أنني كنتُ أرى في عينيها كل شيء...

كنتُ أرى دعواتها الصامتة،

قلقها الذي لم تفصح عنه،

وأملها الذي لم تسمح له بأن يتلاشى.

لم تكن بحاجة إلى أن تقول شيئًا،

فقد كانت هناك،

بكل جوارحها،

تشعرني أنني لستُ وحدي،

أنني لن أسقط ما دامت هي معي.

أحمل كلماتها كدرعٍ في قلبي،

تقودني نحو الحياة والثبات،

لا نحو الضعف والانكسار .

ثم بدأتُ أعيش فصولًا قاسية من الهذيان،

ذلك الذي كنتُ أشرحه دومًا لذوي مرضاي،

كنتُ أصفه بثقة،

حالة من تذبذب الوعي والانتباه،

فيه عدم إدراك وتوجيه للزمان والمكان والأشخاص،

يتدهور ليلا ويتحسن نهارًا،

أطمئنهم أنه عارض مؤقت، لا يدعو للقلق.

لكن هذه المرة،

كنتُ أنا المريض،

وأنا من يمرّ بتشوش الوعي،

أُكرر العبارات بلا وعي،

وأحاول طمأنة من حولي

بنفس الطريقة التي كنتُ أطمئن بها الآخرين.

في منتصف الليل،

عندما اشتدت نوبة الهذيان،

وجدتُ نفسي أكرر الكلام ذاته لزوجتي،

كأنني طبيب فقد وعيه،

لكن روحه ما زالت تمارس مهنتها.

وكأنني أواسي نفسي قبل أن أواسيها.

(كانت هذه التجربة موثقة لأنها فعلًا لاتصدق كيف لمصابٍ بهذيان يطمئن ذويه بطبيعة الهذيان).

زوجتي خلال الأيام التي قضيتها في العناية المركزة،

لم تتركني لحظة،

كانت حاضرة كالشمس التي لا تغيب،

كالأمان الذي لا يتبدد،

وكأنها جمعت الأساليب العلاجية للهذيان،

ومزجتها بقلبها، لتصنع لي طريق العودة.

آنذاك برز معدنها الحقيقي،

معدن امرأة لم تكن مجرد زوجة،

بل كانت رفيقة كفاح،

ونصفًا آخر يكمّلني،

وقوةً كنتُ أحتاج إليها أكثر من أي وقت مضى.

هي بذرة طيبة من عائلة **النزهة** الكرام،

ورمزٌ للنبل الذي تربت عليه.

ولن أنسى أبدًا وقفة **والديها** المشرفة،

كيف انتقلا إلى الرياض ليقيما معنا،

يشاركاننا كل لحظة،

بكل حب واهتمام،

وكأنني ابنهم الذي خرج من أصلابهم.

أما إخوانها، فكانوا إخوتي فعلًا،

يحيطونني بعناية صادقة،

ومحبة خالصة،

لم أشعر معها يومًا أنني غريب،

بل كنتُ واحدًا منهم في كل شيء.

عرفتُ آنذاك معنى الوفاء الحقيقي،

معنى السند دون تذمر،

والحب دون شروط.

كانوا إلى جانبي قلبًا وقالبًا،

يخافون عليّ كأني بعضهم.

أنا محظوظ جدًا،

وأعتبر ذلك توفيقًا من الله،

أن جمعني بهذه الأسرة الكريمة،

التي ما هي إلا امتداد أصيل لعائلة النزهة المباركة.

وهذه المحنة لم تكن شفاءً للجسد فقط،

بل كانت شفاءً للبصيرة.

أعادت ترتيب أولوياتي،

وأعادت صياغة نظرتي للعلاقات.

رأيت من قطعوا المسافات من حائل إلى الرياض،

ليقولوا لي فقط: ''نحن معك''.

تحية إجلال لهم،

لقد أكرموني بلطفهم،

وغمروني بما يحملونه لي من تقدير.

هؤلاء هم الأهل، والأصدقاء،

وهذه هي المعزة التي لا تُشترى،

بل تُزرع وتُحصد في مثل هذه اللحظات.

في لحظات كثيرة من حياتي،

كنتُ أتساءل لماذا لم تأتِني بعض الفرص التي كنتُ أعتقد أنني أستحقها،

ولماذا لم أكن في المكان الذي تصورتُ نفسي فيه؟

لم أكن أدرك حينها أن الأقدار تُرسم بحكمة، وأن ما لم يُكتب لي، كان في حقيقته لطفًا خفيًا من الله.

لم أكن أعلم أن جسدي كان يخوض معركة صامتة، معركة لم أكن أشعر بها، وأنه لو تحققت الأقدار كما أردتُ، لضللتُ الطريق، ولأخذتني المهنة حتى استنزفت ما تبقى من صحتي.

لكن الله، بلطفه الخفي،

صرفني عمّا كنتُ أظنه خيرًا،

ليمنحني ما هو أنسب لحياتي وأبقى لصحتي...

كان لطف الله، الذي لا نراه إلا حين يكشفه لنا الزمن.

الفصل السابع:

النهوض من جديد

حين خروجي من المستشفى وعودتي لبيتي،
كنتُ **شخصًا مختلفًا**،
ليس فقط لأنني عدتُ من مواجهة قاسية مع الموت،
ولكن لأنني شعرتُ بأن الحياة منحتني فرصة ثانية،
فرصة لا يمكن أن تُهدر.

كنتُ قبل العملية أعيش في سكونٍ مألوف،
كان صوت عقارب الساعة ينبض ستين مرة في الدقيقة،
كأنها موسيقى منتظمة تطمئن القلب،
لكن بعد الجراحة تغيّر كل شيء.

أصبحت **عقاربي فوضوية**،
تارةً تبقى على إيقاعها القديم،
وتارةً تجري دون هوادة،
تصعد إلى التسعين، وربما تلامس المئة.

صار لصوت قلبي صدى يرافق لحظات الصمت والهدوء،
صوتٌ معدني يشبه تكّات عقارب الساعة،
لكنه يسكن صدري، لا حائطًا.
أصغيتُ له كثيرًا...
وسمعتُ فيه الحياة وهي تعيد تعريف الوقت، والنَّبض، والمعنى.

لم يكن الألم الجسدي هو الأصعب،
بل تلك اللحظات التي تساءلتُ فيها:
هل سأعود كما كنتُ؟
هل سأتمكن من الوقوف من جديد،
ليس فقط على قدميّ، بل على أحلامي وطموحاتي؟

لم أنتظر إجابة من أحد...

صنعتُ الإجابة بنفسي.

في ٢٧ يناير ٢٠٢٤،

وبعد أقل من ثلاثة أشهر فقط من الجراحة،

عدتُ إلى عملي.

لم يكن الأمر سهلًا،

لكنه كان الخيار الوحيد بالنسبة لي

لأواصل الركض في هذه الحياة وعلى هذه المعمورة.

كنتُ أرفض أن أكون مجرد قصة عن التعافي،

أردتُ أن أكون قصة عن العودة

أقوى مما كنتُ عليه.

ورغم أنني عدتُ بجسد لم يلتئم بالكامل بعد،

إلا أن روحي كانت أكثر صلابة من أي وقت مضى.

لم أكن أبحث عن الراحة،

بل عن الإنجاز،

عن أن أثبت لنفسي أولًا، ثم للعالم،

أن الإنسان قادر على إعادة تعريف نفسه

حتى بعد أصعب المحن.

وفي عام ٢٠٢٤،

الأقدار اختارت لي أن أتولى تجارب كبيرة ومعقدة ومتداخلة في القيادة،

استخرت الله كثيرًا قبل أن أتولى كل واحدةٍ منها،

وما خاب من استخار.

توليتُ أدوارًا متعددة،

كلها تتطلب حضورًا ذهنيًا عاليًا ومهارات قيادة دقيقة:

- **المدير الطبي لمجمع إرادة.**
- **مشرف تخصصات الصحة النفسية بتجمع حائل الصحي.**
- **الممثل النظامي للشؤون الأكاديمية والتدريب في التجمع ذاته.**
- **رئيس الهيئة الطبية العامة بحائل.**
- **رئيس لجنة الطب النفسي الشرعي.**
- **رئيس لجان أخرى متنوعة.**

وفي الوقت ذاته،

واصلتُ أداء مهامي السريرية تجاه مرضاي وعيادتي،

وتنقلت يوميًا بين أدوار القيادة والإشراف والمتابعة والعلاج...

وبين مسؤولياتي الأسرية والصحية والاجتماعية.

لم يكن هاتفي يهدأ.

كانت المكالمات كالأمواج المتلاحقة،

لا تتوقف ولا تنحسر،

تتنوع في مصادرها ومضامينها:

مكالمة تتعلق بمنصب ما،

وأخرى بشأن **لجنة،**

وثالثة من **وزارة،**

ورابعة من **هيئة،**

وخامسة من **مريض،**

وسادسة من **ذويه.**

بطريقة ما،
وصل **رقمي الشخصي** إلى عدد من المرضى ومستفيدي الهيئة الطبية العامة،
فأصبحت غارقًا في فوضى من الأصوات والطلبات.

كان هذا الصخب العارم يهدد بسحبي إلى دوامة لا تنتهي،
لكنني كنت أصرّ على أن أرتب هذه الفوضى،
أن أُخضعها لنظام خاص بي،
أن أحوّلها إلى هدوء وأمان
بطريقة تناسب شخصيتي.

ومن شدة ما اجتاحني من **ضجيج هذا العام**،
تناسيت أن لقلبي عقارب،
عقارب كانت تنبض بهدوء في حضن السكون،
لكنها خفتت تحت وطأة الانشغال وتزاحم الأحداث،
حتى ما عدت أسمعها إلا نادرًا،

كأن الزمن في داخلي صار يهمس بدل أن يتكلم،
وكأن لحظات الصمت،
التي كانت تسمح لي بالإصغاء إلى دقاته،
أصبحت ترفًا لا يزورني إلا عابرًا.

كانت المهام تتداخل وتتقلب باستمرار،
ليس بالساعات بل بالدقائق.

كنت أدير **ستة إيميلات مختلفة**،
ومع أن لكل منها سكرتيرًا مخصصًا،
إلا أنني كنت أتابعها بنفسي.
ورغم أنني لا أؤمن بأن هذا الأسلوب صحي على المدى الطويل،
إلا أنني اضطررت إليه بدافع الحرص والتدقيق،
الذي ينبع من شخصيتي القلقة،
لا سيما في ظل تأخر دعم القوى العاملة أحيانًا،
وحاجتي إلى إدارة الأزمات دون تأخير أو تعثّر.

لم يكن ذلك نابعًا من رغبة في السيطرة،
بل من شعور عميق بالمسؤولية،
ورغبة صادقة في أن تبقى عجلة العمل دائرة دون عوائق.

في بعض الأوقات،
كنت أقوم بدور الرئيس والسكرتير والمتابع في آنٍ واحد.
لم أكن أعلّق الإنجاز على غيري،
بل كنت أبدأ من نفسي،
وأتحرك فورًا دون انتظار.

وأدرك تمامًا أن من صفات **الشخصية القلقة**
الميل إلى الاهتمام **بالتفاصيل الدقيقة**،
وهي صفة قد تكون مرهقة أحيانًا للزملاء والمرؤوسين،
لكنني سعيت دومًا لتشكيل هذه الصفة
في سياق إيجابي نابع من حب العمل
والحرص على جودته،
لا من الرغبة في الإنهاك أو التدقيق المجرّد.

نعم،
المهام كانت تستهلك من وقتي ونومي وطاقتي،
لكنها لم تجرّني للفوضى.
كنت أحرص على أن يكون لكل دور
مساحته الخاصة ذهنيًا وعمليًا،
دون خلط أو تداخل.

وكنت أُوازن بدقة
بين أدواري المتبدلة كرئيس ومرؤوس،
والتي قد تتغير مرات متعددة في اليوم الواحد.

لقد كانت **تجربة إدارية وحياتية فريدة،**
لا تُدرّس في أعرق الجامعات،
ولا تُكتسب من أكبر المؤهلات،
بل تُصنع في جامعة الحياة،
بالتجربة،
بالصبر،
وبالاحتكاك الحقيقي مع المسؤولية.

كنتُ سابقًا لا أُدير سوى عيادتي،
ومع هذا كنتُ أشتكي من أتفه الأمور،
كنتُ أعتمد على رؤسائي في كل صغيرة وكبيرة،
حتى أدركت أن القادة لا يُحبّذون الاعتمادية الزائدة،
بل يحتاجون من ينطلق بنفسه،
يُنجز بثقة،
ويتحرك باستقلال،

ولا يُربكهم بكثرة التردد والنقاشات،
ولا يعود إليهم إلا في كبار الأمور حينما تضيق به السبل.

تعلّمتُ أن **أُفرّق بين المهم والعاجل،**
وأن **أُفوّض بحكمة،**
وتعلّمت أن **أُدير المهام لا أن أُستهلك بها.**

قوتي لم تكن فقط في عدد المهام التي أنجزتها،
بل في التوازن الذي صنعته بينها
دون أن أفقد ذاتي،
أو أتخلى عن خلقي،
أو أساوم على تربيتي ونزاهتي وسمعتي الطيبة،
مهما أثقلني الصخب وأنهكني الزحام.

عام ٢٠٢٤ لم يكن عامًا عاديًا في حياتي،
كان عامًا صقلت فيه مهاراتي القيادية والإدارية بشكل متسارع،
عامًا نضجتُ فيه فكريًا،
وارتفعتُ فيه عمليًا،
وباتت شخصيتي القيادية أكثر وضوحًا...
أكثر حزمًا...
وأكثر اتزانًا.

أنا اليوم لست كما كنت...
أنا أفضل.

وخلال عام واحد فقط من عودتي،

لم أكتفِ باستعادة عملي،

بل أحدثتُ نقلة نوعية في مسيرتي:

- **واصلتُ قيادة التحولات في مجمع إرادة للصحة النفسية،**

حيث كنتُ جزءًا من قرارات تطويرية غير مسبوقة،

لم تكتفِ بتحسين الخدمات،

بل أحدثت فرقًا ملموسًا في جودة الرعاية.

- **أشرفتُ على توسع أكاديمي وتدريبي في تجمع حائل الصحي،**
  - ساهمتُ في رفع عدد مقاعد قبول التدريب السنوية في برامج البورد من ٨٠ إلى ١٨١ مقعد.
  - اعتماد أول خمس تخصصات دقيقة والعديد من الاختصاصات العامة، بالإضافة إلى رفع مقاعد برامج الأكاديمية الصحية من ٢٧ إلى ١٢٧ مقعد.

(وهي قفزة لم تكن مجرد أرقام، بل فرص حقيقية لطلاب الطب والمتدربين، ليستفيدوا مما لم يكن متاحًا لهم من قبل).

- **حققتُ إنجازات شخصية،**

حيث حصلتُ على **قبول في زمالة الطب النفسي الشرعي في كندا،**

وواصلتُ توازيًا مع هذه المهام **دراساتي العليا في القيادة والإدارة،**

والعديد من **البرامج التطويرية الأكاديمية المعتمدة،**

رغم كل الصعوبات الصحية،

لأنني كنتُ مؤمنًا بأن التحديات ليست إلا محطات اختبار

لمدى قدرتنا على الاستمرار.

- **أتممتُ مشروع "حزمة أكتوبر ٢٣ الرقمية"،**

وهو نظام حديث يهدف إلى أتمتة التوثيق الطبي النفسي،

وتوفير أدوات ذكية تسهّل عمل الأطباء،

وتحفظ حقوق المرضى،

وهو مشروع امتد لأشهر من العمل، لكنه اليوم أصبح نموذجًا يُحتذى به.

• **ألّفتُ كتاب (رفاه ودعه) مع أحد الزملاء الرائعين د. محمد أبوزيد.**

• **شاركت في كتابة ونشر العديد من الأبحاث العلمية**
مع زملائي في الصحة النفسية.

• **حصلتُ على تقدير من أعلى الجهات الصحية،**
بما في ذلك شهادات شكر من وزارة الصحة من وكلاء ومدراء عموم ومن الهيئة السعودية للتخصصات الصحية،
ومن قيادة تجمع حائل الصحي، والعديد من الجهات الحكومية.
تقديرًا لمساهماتي في تطوير الخدمات والأنظمة الطبية.

في عام ٢٠٢٤، لم أرَ نفسي في صورة واحدة،
بل تجلّت أمامي نسخ متعددة من عبدالله:
عبدالله الأب، والابن، والزوج، والأخ، والصديق، والطبيب، والمريض، والقائد، والباحث، والمؤلف، والطالب، والمعلم، ومدير المشاريع.

يا له من عام استثنائي
لم يكن لي فيه حول ولا قوة إلا بالله.

فذاك الذي اختار لعبدالله،
من بين سائر الشباب والشابات،
عيبًا خَلقيًا في صمام القلب وأحد شرايينه،
هو ذاته الذي اختار له الشفاء والعافية،
والقوة الروحية،
والصفاء الذهني،
واللياقة البدنية.

وكأنما أراد الله أن يُذيقني مرّ الابتلاء
لأتذوق بعده حلاوة العطاء،
فكان العام التالي أجمل ما عشته من نُسَخ حياتي
على كل الأصعدة: الأسرية، والاجتماعية، والمهنية.

أنا راضٍ عن قدري،
تمام الرضا،
لا يحمل قلبي ذرة جزع ولا ظلّ اعتراض.
فمن لم يرزقني صمامًا كصمامات الآخرين،
رزقني من النعم ما لم يُعطِه لغيري.

وهكذا هي الحياة...
لا تُعطى كاملة لأحد،
لكن لكلٍّ نصيبه،
وعدل الله في الأرزاق لا يراه إلا من نظر بعين الرضا،
لا بعين السخط.

فإذا ضاقت بك نعمة مفقودة،
فتأمل ما لديك من نعم موجودة،
واعلم أن العدل الإلهي لا يُقاس بالكم،
بل بالحكمة.

الفصل الثامن:

الحيرة والأقدار

لم أكتفِ بذلك،
بل وجدتُ نفسي في لحظة مفصلية من حياتي،
لحظة مساومة كبيرة مع النفس...

عبدالله،
أنت تشغل في هذا العمر الشاب
عدة مناصب قيادية وإدارية في آنٍ واحد:

- **رئيس الهيئة الطبية العامة.**
- **الممثل النظامي للشؤون الأكاديمية والتدريب.**
- **مشرف تخصصات الصحة النفسية في تجمع حائل الصحي.**
- **المدير الطبي لمجمع إرادة للصحة النفسية.**
- **رئيس عدة لجان نفسية وجنائية.**

هل أتشبث بهذه المناصب،
التي لم يكن الوصول إليها سهلًا،
والتي لم يكن تركها قرارًا يمكن اتخاذه ببساطة؟
أم أترك كل شيء وراء ظهري،
وأغادر لإكمال مسيرتي العلمية الطبية في كندا،
رغم أن القبول هناك ليس سهلًا،
ورغم أن هذه المناصب التي أشغلها
لم يكن التخلي عنها خيارًا متاحًا لمن هم في موقعي؟

كنتُ في صراع،
استشرتُ الكثيرين من حولي،
واختلفت الآراء،
لم يكن هناك إجماع على قرار واحد.

البعض رأى أنني في **قمة التأثير الإداري،**
فلماذا أغادر؟
والبعض الآخر رأى أن **العلم هو الاستثمار الحقيقي،**
وأن هذه الفرصة لا يجب أن تُفوَّت.

لكنني حين نظرتُ إلى ما أنجزته،
أدركتُ أنني تركتُ **بصمة واضحة،**
وأنني وضعتُ أساسًا صلبًا لمن سيأتي بعدي.

لم يكن الرحيل هروبًا،
بل كان انتقالًا إلى مرحلة جديدة،
مرحلة كنتُ بحاجة إليها لأكمل مسيرتي كما يجب.

بعد استخارة الله عز وجل،
رأيتُ أن الحكمة تقتضي أن أتوقف هنا، وأن أبدأ رحلة أخرى،
تحمل في طياتها تحديات مختلفة،
لكنها تفتح لي أبوابًا أكبر.

غادرتُ وطني،

وأنا أحمل في قلبي كل المعارك التي خضتها،
كل الجراح التي صنعتني،
وكل الانتصارات التي لم تكن سهلة أبدًا.

لم يكن القرار سهلًا،
لكنه كان القرار الصحيح...
قرار من يرى أن الرحلة لم تنتهِ بعد،
بل بدأت من جديد.

لكن أعظم إنجازاتي لم تكن هذه الجوائز
ولا هذه الأرقام...

أعظم إنجازاتي كانت قدرتي على **العودة**
بعد أن كدتُ أفقد كل شيء.

كانت قدرتي على **الوقوف بعد السقوط،**
على المضيّ بعد أن بدت الطرق مغلقة.

كنتُ أؤمن أن المحنة
لم تكن إلا إعدادًا لمراحل أكبر،
وأن الألم الذي مررتُ به
لم يكن إلا ثمنًا للصلابة التي اكتسبتها.

اليوم،

عندما أنظر إلى ما حققته بعد الجراحة،

لا أراه مجرد نجاحات مهنية،

بل أراه دليلًا على أن الإنسان قادر على تجاوز أي شيء،

طالما أنه لم يسمح للخوف بأن يقيده،

ولم يسمح للألم بأن يحد من طموحاته.

لقد كُتبت لي حياة جديدة بعد الجراحة...

وكان عليّ أن أجعلها تستحق أن تُروى.

اليوم،

عندما أنظر إلى الطريق الطويل الذي سلكته،

أدرك أنني لم أكن مجرد رجل يبحث عن النجاح...

كنتُ محاربًا،

مقاتلًا لم يعرف الاستسلام يومًا.

لم يكن الطريق سهلًا،

لكنه كان يستحق كل خطوة،

لأنني كنتُ دائمًا أقول لنفسي:

"المجد لمن لا يتوقف."

الفصل التاسع:

الابتعاث

لحظات الوداع

اقترب اليوم الذي طالما كنا نؤجّله في قلوبنا،
نراه في الأفق فنغضّ الطرف عنه.

وحين حلّ،
لم ينفعنا كل الاستعداد الذي ظننّا أنه سيخفف الوقع.

كنت أتحرك في البيت كمن يحاول أن يحفظ تفاصيله،
كأنها ستغيب عن ذاكرتي،
وكأنني لن أعود سريعاً.

ودّعت أمي...
وأي وداع هذا؟
كيف تشرح لها أن الغياب مؤقت،
وأن قلبك سيبقى عند عتبة بيتها؟
كانت تنظر إليّ بصمتٍ عميق،
وتغالب دموعها بكبرياء الأمهات،
لكن عينيها فضحتا ما حاولت أن تخفيه.
احتضنتني،
فارتجفت يداها...
وكأنهما لا تريدان أن تتركا ظهري.

أما أخواتي،
فكان وداعهن كصفحات تُطوى من كتاب الطفولة والشباب.
بكاء صامت،
ونظرات مليئة بالدعاء والخوف،
وكلمات متقطعة تائهة بين الضحك والبكاء.

وفي الجانب الآخر،
كانت زوجتي تعيش وداعاً لا يقلّ وجعاً.
عانقت والدها ووالدتها
كما لو كانت ترحل إلى أرضٍ بعيدة بلا عودة.

إخوتها التفّوا حولها،
وقلوبهم ترجف من الفقد المؤقت،
وكل واحد منهم كان يحاول أن يبدو قوياً لأجلها،
لكنها كانت تنكسر من الداخل بصمت لا تملكه الكلمات.

وحين ودّعت أمها...
انفجرت.
لم تستطع الاحتمال.
تعلّقت بها كما تتعلّق طفلةٌ بثوب والدتها في ليلةٍ مظلمة،
وكانت دموعها تنهمر،
كأنما تفجّر بها الحنين كله دفعةً واحدة.

رحلنا وأرواحنا لا تزال متعلّقة بالبيوت،
بالوجوه،
بالصوت الذي يناديا من الغرف القديمة.

كأننا تركنا نصفنا خلفنا،
وأخذنا النصف الآخر لنبدأ به الغربة.

لحظة الوصول

هبطت الطائرة بهدوءٍ يشبه الهمس،
وكأنها تحترم الصمت الذي نحمله بداخلنا.

فتحتُ نافذتي الصغيرة،
فرأيت أرضاً بيضاء،
مغطاة بما يشبه الحنين المتجمّد...

كان الثلج من أوائل المستقبلين لنا.

لحظة الخروج من الطائرة كانت صادمة،
ليس من صقيع الجو فقط،
بل من غربة الشعور.

كل شيء جديد،

اللغة،

الوجوه،

التفاصيل،

حتى الهواء له طعمٌ مختلف.

نظرتُ إلى زوجتي،

كانت متماسكة،

لكن عيناها لا تزالان معلّقتين هناك...

حيث تركنا من يعز على قلوبنا هناك.

نظرت لها لأقول:

نحن معاً،

لا تقلقي،

من هنا سنبدأ،

سنصمد،

سنعود بكل فخر.

مشينا في المطار نُجرُّ حقائبنا...

كأنها تُجرُّ قلوبنا الثقيلة معها.

كل خطوة نأخذها
كانت تبتعد بنا عن الوطن،
وتقربنا من الحلم...
حلمٌ بثمن الحنين.

لكن رغم كل شيء،
كان في القلب سكينة غريبة.

كأن هذا المكان، رغم برودته،
يحتضننا بطريقته الخاصة...
بهدوء،
بانضباط،
وبفرصة جديدة للبدء من نقطة الصفر،
ولكن بنَفَسٍ مختلف.

الهدوء بعد الضجيج

في كندا،
كل شيء خفت... حتى هاتفي.
لا رسائل،
لا مكالمات،
لا مهام مستعجلة
ولا اجتماعات مفاجئة.

هدأ كل شيء فجأة،
وكأنني دخلتُ في فقاعة من الصمت.

لكن كان هناك ضجيج من نوعٍ آخر...
ضجيج داخلي.

اشتياقٌ لأصوات اعتدتها،
لروتين كنت أشكو منه،
لوجوهٍ أعرفها في الطرقات،
ولترفٍ لم أكن أعلم أنه ترف.

ورغم كل ذلك...
كان الهدوء جميلاً.

لم يكن عزلة،
بل راحة.

راحة من السباق،
من المتطلبات،
من كثرة الأدوار.

كنت أستمع إلى نفسي،
أسمع صوت أنفاسي،
وأشعر بمرور الوقت لا ركضه.

كانت الحياة في غاية السكون،
كأنها تُعلّمني كيف أتنفّس من جديد...
ببطء،
وامتنان.

الغربة... عندما يكون البرد أكثر من مجرد طقس

لم تكن الغربة مجرد انتقالٍ من وطنٍ إلى آخر،
بل كانت اقتلاع.
اقتلاعًا من الجذور الدافئة
إلى أرضٍ باردةٍ،
بالمعنى الحرفي والمعنوي.

حين غادرتُ حائل،
كنتُ أعلم أنني أترك جزءًا من روحي هناك،
لكنني لم أكن أدرك أنني سأشعر بهذا الفراغ بكل هذا العمق.

البرد هنا ليس مجرد طقس،
إنه كائنٌ يعيش معك،
يدخل في عظامك،
يتسلل إلى تفاصيل يومك،
يُذكّرك بأنك لستَ في بيتك،
بأنك غريبٌ هنا.

حين خرجتُ أول مرة في الشتاء،
شعرتُ وكأن الهواء يصفع وجهي،
كأنني فقدتُ الإحساس بأطرافي،
كأنني لا أنتمي لهذا المكان.

لم يكن الخروج سهلاً،
فكل حركة تحتاج إلى استعداد،
وكل مشوار بسيط يتطلب تجهيزات لم أعتدها.

ومع ذلك،
كان لا بد من التأقلم،
لأن الحياة هنا تستمر كما لو أن الطقس لا يعني شيئًا،
وكان عليّ أن أستمر معها.

كنتُ أراقب الناس يمشون وكأن شيئًا لم يكن،
بينما أنا أحاول التأقلم،
أحاول إقناع نفسي بأنني سأعتاد،
بأنني سأصبح مثلهم،

لكن الحقيقة أنني لم أعتد،
ولن أعتاد.

كل خطوة خارج المنزل كانت معركة،
ليست فقط مع الثلج المتراكم،
ولا مع الرياح التي تلسع الجلد،
بل مع نفسي،
مع هذا الشعور الثقيل بأنني بعيد، بعيد جدًا.

المرض... عندما تصبح أنت الطبيب والمريض في آنٍ واحد

في كل مرة كنتُ أفحص سيولة الدم،
كنتُ أشعر أنني أصبحتُ جزءًا من هذه الأجهزة الطبية،
أنني لستُ مجرد مريض، بل طبيب أيضًا،
شخصٌ عليه أن يقيس نبضه، ضغطه،
أن يُعدّل جرعات الوارفارين (مسيّل/مميّع الدم) كل فترة،
أن يُراقب نفسه وكأن جسده قنبلةٌ موقوتة
تحتاج إلى إدارةٍ دقيقة.

أحيانًا كنتُ أشعر بالإرهاق،
ليس جسديًا فقط،
بل نفسيًا،

كنتُ أكره فكرة أنني يجب أن أكون منتبهًا لكل شيء،
أنني لا أستطيع أن أعيش بلا حذر،
أنني محكومٌ بهذه الأرقام،
بسيولة الدم،
بضغط الدم،
بنبضات القلب.

ومع ذلك،
لم يكن هناك خيارٌ آخر،

كنتُ أقول لنفسي:
"الحياة لا تنتظر أحدًا،
إمّا أن تسيطر عليها، أو تسيطر عليك."

ثلاثة أشهر من التكيف... أو محاولة التكيف

لا شيء يمكن أن يُحضّرك للغربة.
يمكنك أن تُقنع نفسك بأنك مستعد،
أن لديك خطة،
أن لديك عزيمة،

لكن الحقيقة أن الغربة تضعك في اختبارٍ لم تتوقعه.

الأشهر الثلاثة الأولى كانت الأصعب،
كأنني كنتُ أتعلم كيف أعيش من جديد،
كيف أتكيف مع فارق التوقيت
الذي جعلني معزولًا عن أهلي وأصدقائي،

كيف أعتاد على فكرة أنني غادرتُ للابتعاث
في توقيت أغلب زملائي المبتعثين عادوا منه.

كنت أتصور جمعاتهم،
أحاديثهم،
ضحكاتهم،

كيف أُقنع نفسي بأن هذا القرار كان صحيحًا،
رغم كل هذه المشاعر الثقيلة التي تحاصرني.

زوجتي كانت معي،
لكنها كانت تعيش المعاناة نفسها،
لم تكن الأمور سهلة علينا،
كنا نُحاول أن نتأقلم،
أن نصنع لأنفسنا مساحةً من السعادة في بلدٍ لا يشبهنا،

لكن التحديات كانت تتزايد.

وضعنا ابننا صالح في مركز رعاية الأطفال،
ظننا أنه سيكون مكانًا آمنًا له،
لكنه لم يكن كما توقعنا.

المكان لم يكن نظيفًا كما يجب،
الموظفون بلا اهتمام،
وبدأت سلسلةٌ لا تنتهي من الوعكات الصحية،

كان صالح يمرض بشكلٍ متكرر،
حتى قررنا أن نوقفه عن الذهاب،
خصوصًا في رمضان
الآن،
نحن نبحث عن بديل،
لكن قوائم الانتظار طويلةٌ جدًا،
وكأن كل شيء هنا يخضعُ لانتظارٍ لا ينتهي.

رمضان... حين تُصبح الأيام متشابهة بلا روح

كنتُ أظن أن رمضان في الغربة سيكون صعبًا،
لكنني لم أكن أتخيل أنه سيكون بهذه القسوة.

في السعودية،
كان كل شيء ينبض بالحياة في هذا الشهر المبارك:
المساجد،
التجمعات العائلية،
الأجواء الروحانية.

هنا؟
لم يكن سوى شهرٍ آخر في جدول العمل.
لا أذان يُرفع،
ولا موائد إفطار عامرة كما اعتدنا.

كنتُ أبحثُ عن صوت الأذان،
عن ذلك الشعور الذي يسري في الجسد قبل المغرب بلحظات،
عن الأجواء الروحانية،
عن التجمعات،
عن الأحاديث الممتلئة بالضحك حول مائدة الإفطار.

لكن هنا... لا شيء.
كنا نحاول أن نصنع رمضاننا الخاص،
نُحضّر التمر،
نُجهّز السفرة بأبسط ما يمكن،
نصلي في المنزل،
نحاول أن نُعيد خلق الأجواء التي عرفناها طوال حياتنا.
لكن الحقيقة؟
لم يكن الأمر نفسه،
لم يكن حتى قريبًا مما اعتدنا عليه.

أصبحنا نتسلى بخيالاتنا،
نتحدث عن العودة،
عن لحظة وصولنا إلى مطار حائل،
عن أول وجبةٍ سعوديةٍ بعد الغياب،
عن حضن أمي الذي سيُعيدني طفلًا للحظات.

كنا نعيشُ على هذا الحلم كل يوم،
كأننا نحتاجه لنُكمل هذه السنة،
يومًا بعد يوم.

الغربة داخل المستشفى... لا يدٌ تُربّت على كتفك

في المستشفى،
كنتُ أشعر أنني وحيدٌ وسط الجميع.

لم يكن هناك أحاديث جانبية،
لا جلسات ودية،
لا ذلك الدفء الذي اعتدته في مستشفيات وطني.

كل شخصٍ منشغلٌ بنفسه،
لا أحد يسألك كيف حالك،
لا أحد ينتبه إن كنت تمرُّ بيومٍ سيء أو جيد.

اللغة كانت تحديًا في البداية،
لم أكن أواجه صعوبةً في الفهم،
لكنني كنتُ أحتاجُ وقتًا لأجد كلماتي،
بينما أصغر طبيبٍ مقيم
كان يأخذ الأجواء بسهولة،
ليس لأنه أفضل مني،
بل لأنه ببساطة يتحدث لغتهم بطلاقة.

لكن رغم كل شيء،
كنتُ أبحثُ عن أي انتصار، ولو كان صغيرًا.

كنتُ أفرح بكل خطوةٍ جيدة،
بكل لحظةِ إبهارٍ أمام مشرفي،
حين يراني أُقدّم شيئًا لم يتوقعه مني.

كان يُثني عليّ كثيرًا،
كان يرى أنني أملك طريقة تفكيرٍ مختلفة،
كان يمنحني الثقة،
لم يكن يُدقق على زلاتي اللغوية،
وكان هذا وحده كافيًا ليمنحني دفعةً قوية للاستمرار.

الحنين إلى الوطن... وإلى أمي

لم يكن يمرُّ يومٌ واحد
إلا وكانت أمي في ذهني...
في قلبي...
في دعائي.
كنتُ أشعر بها رغم المسافة،
أسمع صوت شوقها قبل أن تنطق به،
وأرى في ملامحها عبر الشاشة
ما تعجز الكلمات عن وصفه.

كنتُ أعلم يقينًا أنها تشتاق لنا جميعًا،
لكل أبنائها وبناتها،
لكن شيئًا ما في داخلي كان يقول لي:
"شوقها لي مختلف...فيه لوعة، وفيه حنين، وفيه شيء لا يُشبه أحدًا."

رغم أنها تحاول أن تخفي هذا الشعور،
إلا أن الدموع كانت تفضحها في كل مكالمة مرئية،
دموع لا تنضب،
حتى ونحن في الشهر الرابع والخامس من غربتنا،
كأن قلبها لا يزال يرفض أن يتصالح مع غيابنا،
كأن رحيلنا عنها ترك في صدرها فراغًا لا يُملأ.

وفي كل مرة أراها تبكي...
كانت الدموع تنزل على قلبي،

لكنها لم تكن تؤذيني،
بل كانت تسكب في داخلي دفئًا غريبًا،
كأنني طفلها الصغير
الذي لا تزال تخاف عليه من النسمة،
وتشتاق له إن غاب عن ناظرها لحظة.

كم تمنيت حينها أن أكون كما تتصورني،
كما تحبني،
أن أكون عند حسن ظنها،
أن أُسعدها كما أسعدتني،
أن أُرضيها كما أرضتني،
أن أكون في قلبها كما كانت دومًا في قلبي...

أكبر من كل المناصب،
وأغلى من كل الإنجازات.

كنتُ أقول لنفسي كثيرًا:
هل يستحق هذا البُعد كل هذا الحزن؟
هل ما أسعى إليه سيُخفف عنها؟
هل سأعود يومًا محمّلًا بما يُبرر كل هذا الغياب؟

لكني كنتُ أعلم...
أنني لم أترك كل شيء خلفي
لأعود خالي الوفاض،
ولم أتحمّل وجع الغربة
لأعود دون أن أحمل لها فرحًا يليق بحجم دموعها،
أو إنجازًا يليق بعظمة حبها.

المجد لمن لا يتوقف

ورغم كل شيء،
لم يكن هناك يومٌ لم أُنجز فيه شيئًا جديدًا.

كنتُ لا أزال أتلقى شهادات الشكر والتقدير
من جهاتٍ عدة في السعودية،
على الأثر الذي تركته في ٢٠٢٤،
وكأنني أعيشُ في مكانين في الوقت ذاته،
هنا وهناك.

لم أكن أريدُ أن أكون مجرد طبيبٍ عادي،
كنتُ أريدُ أن أترك بصمة،
أن أُنجز شيئًا،
حتى في هذه السنة
التي أحسبُ أيامها واحدًا تلو الآخر.

واليوم،
بعد كل هذه الأشهر،
أدركتُ أنني لم أختر الطريق السهل،
ولم أسلك دربًا ممهدًا،
لكنني كنتُ دائمًا أقول لنفسي:
"المجد لمن لا يتوقف."

الفصل العاشر:

نحن جيل التحول

حب الوطن ليس ادعاءً يُقال عند الحاجة،
ولا شعارًا يُرفع حين تقتضي المصلحة،
ولا موقفًا متقلبًا يتغير مع الظروف.

حب الوطن شعور صادق،
يرافقك في صمتك قبل كلماتك،
ويكبر معك دون أن تشعر،
حتى يصبح جزءًا من كيانك وروحك.

أنا لا أقول إنني أحب السعودية فحسب،
أنا أعيشها وأتنفسها وأحملها في وجداني.

أراها في تراب **"المستجدة"**،
قرية أبي وأمي وأجدادي،
وفي جدران بيتنا القديم الذي احتضن طفولتي،
وفي **"البرندة"** التي كنا نجلس فيها،
وفي **"الزوالي"** التي كنا نفرشها لأبي في **"الشبة"** مع أصدقائه كل مساء.
أسمعها مع بداية اليوم في النشيد الوطني على التلفاز،
وفي جدران المدرسة،
في صوت القارئ الشريم وقت الفسحة،
وصوت راديو سيارة والدي (**الألتيما**) فجراً،
يتلو فيها عبدالباسط أو علي جابر.

أشمّها في رائحة **خبز التميس**
ونحن نذهب لبقالة (**نافع**) صباح الخميس،
وأراها في حوض (**الددسن**)،
وفي (**الجمس**) البيج الذي حملنا كل صيف إلى مكة والمدينة،
والشراع الذي يحمل الحقائب.

هي فرحة **التعليم المجاني** الذي فتح لنا الأبواب،
والصحة المجانية التي وقفت معنا في الشدائد،
ومنح الأراضي، وتيسير القروض،

وحين نحتفل **بفوز المنتخب** وتكتظ الشوارع بفرحتنا،
وحين يلامسنا حنان القيادة **بتبكير إجازة أو راتب،**
أو **بإعفاء سجين، أو علاج مريض، أو ابتعاث طالب،**
أو تغطية تكاليف لا يقدرها إلا من عايشها.

هي فخرنا **بأرضنا المقدسة،**
هي النهضة التي نعيشها اليوم
بقيادة شبابية طموحة تشبه أحلامنا.

وكل هذا ليس مجرد ذكريات،

بل هو الوطن،

وهو السبب الذي يجعلني أعمل كل يوم

لأكون جديرًا بهذا الانتماء،

لا مداهنةً ولا تملقًا،

بل وفاءً لصوت الأرض الذي يسكنني.

في مستشفى **سان جوزيف في كندا،**

كنت في نقاش مع طبيب إيراني يعمل معي،

وفجأة همس لي قائلاً:

"أنتم محظوظون بصاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان.

كيف استطاع في سنوات قليلة أن يجعل بلادكم حديث العالم؟

كيف تسير نهضتكم بهذه السرعة؟"

ثم تابع قائلاً بحسرة:

"في السابق، كنا في إيران نرى أننا متقدمون على السعودية

في مجالات كثيرة،

والآن للأسف أنتم تسبقوننا في كل شيء.

لهذا السبب أنا هنا، أعمل في كندا،

لأن ما رأيته في كندا لم أره في وطني."

توقفت للحظة وأنا أستمع إليه،
لكنني ابتسمت،
لأنني كنت أفكر بالعكس تمامًا.

قلت له:

"أما أنا، فأنا في كندا،
لكنني لم أجد فيها ما وجدته في وطني."

رأيت في السعودية نهضة تسابق الزمن،
وإصرارًا على أن نصبح في المقدمة، لا أن نكون تابعين لأحد.

رأيت قائدًا يعمل حتى ساعات متأخرة،
لا يجامل، لا يساوم على الفساد،
يضرب بيدٍ من حديد على كل فاسد،
ويرفع كل مجتهد.

رأيت عدلًا، وإنصافًا،
وإدارةً تجمع بين الحكمة والذكاء الاجتماعي،
قيادة تفهم أن بناء الوطن لا يكون بالتناحر،
بل بالعمل، بالوضوح، وباتخاذ القرارات الصعبة.

تعلمت من **سمو سيدي الأمير محمد بن سلمان**
أن النزاهة ليست خيارًا،
بل مبدأ وضرورة لمن يريد أن يكون جزءًا من هذا المستقبل.

تعلمت أنني لا يمكن أن أكون رئيسًا أو مرؤوسًا للفاسدين،
ولا يمكن أن أسمح لنفسي بأن أكون جزءًا من دائرة تُعيق التقدم.

لكن هذا الطريق ليس سهلًا.
كل صباح، أستيقظ وأنا أشعر بالإرهاق،
وكأنني أقترب من الاحتراق الوظيفي،

لكنني أستذكر **وطني...**
أستذكر كيف ننهض، كيف نرتفع،
وكيف أننا نعيش لحظة تاريخية لن تتكرر.

نحن جيل التحول،
جيل لن يكون مجرد مشاهد، بل صانع تغيير.

السعودية لا تنتظر أحدًا،
ولا تقبل إلا بالأفضل...
فكيف لي أن أتوقف؟
المجد لمن لا يتوقف... لأن السعودية لا تتوقف.

الخاتمة

أنا لا أزعم أنني قدّمت شيئًا عظيمًا،
ولا أنني كنتُ بطلًا استثنائيًا في هذه الحياة.
كل ما في الأمر أنني عشتُ أحداثًا شعرتُ أنها تستحق أن تُروى،
ليس لأنها فريدة، بل لأنها مليئة بالمشاعر،
ولأن الطريقة التي واجهتُ بها تلك الظروف هي ما شكّلتني،
وليست الأحداث بحد ذاتها.

لم أكتب لأُعدّد إنجازًا،
ولا لأُشير إلى محطةٍ بلغتُها،
فما أنا إلا عبدٌ من عباد الله،
ساقه الله في دروبٍ ما كان لها أن تُفتح لولا فضله.

أؤمن أن في هذا الوطن من خدم أكثر،
وأبدع أكثر،
وبلغ من المجد ما لم أبلغه.
ولم يكن ذلك يومًا هاجسي،
بل كتبت لأُفرِغ ما في صدري،
عن رحلةٍ حفلت بصبرٍ وخوف،
وبينهما تردّدٌ قاتل،
ثم عزيمةٌ واثقة،
تلتها لحظات نورٍ،
انبثقت في عتمةٍ ظننتها لا تنقشع.

ويأسرني في هذا العمر اليافع،
أن يُقبل إليّ كثيرون،
يُبدون لي رغبتهم في أن يسلكوا ذات الطريق،
ويحملون أسئلتهم عن سر النجاح،
كأنما يرونني في صورةٍ لم أرها في نفسي،
فيجعلونني، بغير قصد،
أشعر وكأنني إلهامٌ لهم،
ودليلٌ يُحتذى به،
وشهادةٌ على أن الله إذا أراد لأحدٍ خيرًا،
ساق إليه القبول،
وجعل له في القلوب أثرًا.

وإني لأرجو من الله،
أن تكون هذه البدايات المتواضعة،
أساسًا لمسيرةٍ طويلةٍ مباركة،
لا فقاعةً لمرحلةٍ عابرة،
وأن يجعلني ممن إذا ذُكر،
ذُكر الخير معه،
وإذا مضى، بقي الأثر بعده.

ما أردتُ قوله،
هو أن في داخل كلٍّ منا حكاية تستحق أن تُروى،
حتى لو لم تُسلَّط عليها الأضواء،
فليست القيمة في شهرتها،
بل في صدقها، ووقعها في النفس.

فليس المجد لمن سار الطريق خاليًا من العثرات،
بل لمن سقط مرارًا،
ونهض كل مرة بروحٍ أشد،
لمن تكسّر ثم تشكّل من جديد،
ولم يسمح لانكساره أن يُخرسه عن الحلم.

القوة الحقيقية ليست في الثبات،
بل في الإصرار على المضيّ رغم التردد،
وفي الاستمرار، حتى حين تتعثر كل يوم.
تلك هي البطولة الصامتة،
التي لا تُصفّق لها الجماهير،
لكنها تصنع في القلب مجدًا لا يزول.

ومن هذا الطريق الطويل، خرجتُ ببعض المعاني التي لا أنساها:

- **أن النية الطيبة الخالصة لوجه الله، المحبة للخير للجميع هي الأساس الذي يبنى عليه كل شيء.**
- **أن رضا الوالدين، ودعوات الأم... هي أثمن ما يمكن أن يُرافقك في الحياة.**
- **أن المحن قد لا تأتي لتعطّلنا، بل لتُعيدنا إلى الطريق الصحيح.**
- **أن الصبر لا يُكافأ دومًا بنتائج سريعة، لكن الله لا ينسى.**
- **أن من يحبك بحق... يظهر وقت الشدة، بصوته، أو بدعائه، أو حتى بصمته القريبة.**
- **كل الذين نهضوا بعد السقوط لم يغيروا أقدامهم، بل غيروا أفكارهم (وينستون تشرشل).**
- **أن النجاح ليس الهدف بحد ذاته، بل أن تصل إليه وأنت لم تخسر نفسك أو تتنازل عن قيمك ومبادئك.**
- **كل من أضاف لهم المنصب ولم يضيفوا له نسيهم الناس وتجاهلهم التاريخ وكأنهم لم يمروا من هناك.**
- **قد تُسلّح جيشًا من الإعلام ليغلفوا فشلك بنجاحات وهمية وهامشية، ولكن تذكر أنها مؤقتة وأن الله يرى.**
- **أن الوطن يبقى فيك... حتى وإن كنت بعيدًا عنه بآلاف الأميال.**
- **أن الشر لا يسكن فقط في زنازين السجون، ولا يطلّ علينا من شاشات الجريمة فقط، فالأشرار لا يلبسون دومًا قناع الشر، بل يأتون بأثواب حسنة، يظهرون كمدراء، أو رؤساء، أو مدربين، يتغذّون على كسر الثقة، وقتل الطموح، وإذلال الحالمين، لا يرضيهم أن يراك تتفوّق، ولا يطيقون أن تكون يومًا أفضل منهم. لكن لا تسمح لهم أن يوقفوك، ولا تجعل قسوتهم تُطفئ نورك، دع كفاحك هو ردّك، واجعل الزمن كفيلًا بأن يُخرسهم حين تصل إلى ما لم يستطيعوا الوصول إليه ويجدون أن حيلهم خاسرة إلا مع الضعفاء.**

في النهاية، هذه ليست رواية عن المجد،
بل عن **الاستمرار**،
عن محاولة البقاء واقفًا مهما كانت الرياح.

كتبتها لنفسي قبل أن أكتبها لأحد،
لأتذكر أن الطريق كان مليئًا بالعواصف،
لكنني، بحمد الله... **لم أتوقف**.

المجد لمن لا يتوقف.